الفصل السادس

الـــتّـــربيـــة العـقـلـــيّـــة

المبـحـث الأول : أهداف التربية العقليّة .

المبحث الثانـــي : العمليات المعرفيّة للعقل .

المبـحـث الثـالـث : كيفيّة تحقيق التربية العقليّة .

المبحـث الرابــع : علاقة التّربية العقليّة بالإيمان .

المبحث الخامس : الوسائل العقليّة في زرع الإيمان .

المبحث السادس : التّربية العقليّة و البناء العلمي للناشئة .

obeikandl.com

المبحث الأوّل :

أهميّة التربية العقلية

تتناول التّربية العقلية عمليات التفكير المختلفة من إدارك وانتباه وحفظ وتذكّر وتخيّل وتجريد وتعميم وتحليل وتركيب ومحاكمة وإبداع وغيرها[١] .

ومن البديهي أن التّربية العقلية تعمل على توجيه هذه القدرات وتنميتها وتطويرها على نحو يغدو الطّفل بها أكثر قدرة على التفكير السوي الصحيح ، وأكثر نجاحاً في الوصول لتحقيق الهدف المنشود ، وأفضل إنجازاً للمهام التي يُراد منه تحقيقها .

والتّربية العقلية هي الّتي تعدّ الطفل ليكون من رجال المستقبل الناجحين لأنّ ((الطّفل واحد من رجال الأمّة إلاّ أنّه مستتر بثياب الصبا ، فلو كُشف لنا عنه وهو كامن تحتها لرأيناه واقفاً في مصافّ الرجال القوّامين ، لكن جرت سنةُ الله ألا يتم زوال تلك الأستار إلاّ بالتّربية شيئاً فشيئاً ، ولا تؤخذ إلا بالسّياسات الجيدة على وجه من التدريج .

والتّربية العقلية تهتمّ بموضوع العقل وكيفية عمله وإعداده لأنّ العقل هو الشيء الذي كلّف الله تعالى به الإنسان دون غيره بالتكاليف الإلهية،ولأنّ العقل الأداة الكاشفة عن سبيل الرشاد من سبيل الغي فيقول الإمام علي ﷺ:كفاك من عقلك ما أوضح لك سبل غيّك من رشدك)) [٢].

ووصف سيدنا علي العاقل بأنّه هو الذي يضع الشيء في مواضعه [٣] .

---

(١) حبيب رحمة ، التربية العامة ، ص ١٧ .

(٢) نهج البلاغة ، ص ٦٠٦ .

(٣) المصدر السّابق .

إذاً العقل هو المركب الذي يصل به الراكب إلى أهدافه ، أو هو الدليل إلى سبيل النجاة ومكامن الفلاح والنجاح . و السبب في هذا أنّ العقل يقوم بمهام كبيرة ، و يصدر أحكامه على الوقائع و القضايا المتعددة على ضوء طريقة تفكيره التي اعتَادَها أو رُبيَّ عليها .

obeikandl.com

المبحث الثّاني :

العمليات المعرفية للتربية العقلية

لقد ذهب بعض علماء النّفس إلى أنّ العقل يقوم بعمليات معرفية أهمها :

١ ـ الإدراك : و هو العملية الّتي تشير إلى تفسير البيانات التي تصلنا من البيئة الخارجية أو الداخلية عن طريق الحواس [١].

٢ ـ التذكر : هو العملية الّتي يتمّ بها حفظ المعلومات أو تخزينها ثم تذكرها أو استدعاؤها حين اللزوم [٢].

٣ ـ الاستدلال : هو العملية الّتي تشير إلى استخدام المعرفة في إجراء الاستنباط والوصول إلى النتائج [٣].

٤ ـ التبصّر : هو العملية الّتي تشير إلى تقيم الأفكار والحلول من حيث الكيف[٤] .

٥ ـ الاستبصار : و تشير هذه العمليّة إلى اكتشاف علاقات جديدة بين وحدتين أو أكثر من المعرفة

والطّفل في مرحلة المدرسة الابتدائية يقوم عقلهُ بهذه العمليات المعرفية مع تفاوت في نسبها ودرجاتها ، و وجود تقدم عن مرحلة الطفولة المبكرة [٥].

---

(١) المبروك عثمان الأحمد ، تربية الأولاد والآباء في الإسلام ، ص ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المبروك عثمان ، تربية الأولاد والآباء في الإسلام ، ص ١٥٩ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

المبحث الثالث :

كيفيّة تحقيق التّربية العقلية

فإذا كانت العمليات العقلية تسهم في تشكيل المعرفة وتفسيرها والعلاقات المشتركة بين مختلف المعارف فإن هذا يدفعنا إلى البحث عن كيفية تحقيق التربية العقلية .

في ضوء ما قدّمنا سابقاً نستطيع القول : إنّ التّربية العقلية تعني تكوين فكر الطفل بكل ما هو نافع من العلوم والمعارف والثقافة العلمية والتوعية الفكرية والحضارية حتى ينضج عقلهُ ويتكوّن علمياً وثقافياً فتصبح لديه القدرة على التفكير السليم و المستقل فيحسن الحكم على الأشياء مستعيناً بخبراته ومستفيداً من خبرات الآخرين [١].

وهذه التّربية ليس بالإمكان تحقيقُها إلا بالاستعانة بالآباء لأنّ دورهم كبير رغم وجود المؤسّسات التّربوية والثّقافية المنتشرة هنا وهناك .

و يمكن تحديد بعض النقاط التي يمارس من خلالها الآباء أدوارهم في مجال تربية عقل الطفل . و من هذه الأمور :

التعليم الإلزامي

١ ـ إلزامية التعليم :

ويتم ذلك بوضع الآباء أبناءهم في المدارس عند بلوغهم السن القانوني / ست سنوات / .

و هذا ما ينبثق عن التصوّر الإسلامي عن العلم ، إذ فرض الإسلام العلم على كلّ مسلم ومسلمة لقوله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » [٢].

---

(١) عبد الله علوان ، تربية الأولاد ، ج١ ط٢ دار السلام ، بيروت ، ١٩٧٨ ص : ٢٥٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجة ، رقم ٢٢٠ .

و قـد دلّـت نصوص نبوية أخرى على أنّ فرضية التعليم تعني أداء العلم و تبليغه وتعليمه و عـدم جـواز حبسُـه أو كتمانه عن أي طالب له لقول ﷺ : « مَن كتم علماً ألجَمهُ الله بلجام من نار » [١].

٢ ـ مجّانية التّعليم في الإسلام :

وقـد نظـر الإسـلام إلى العـلم نظـرة فيهـا الكثير من الإكبار حتّى أنّ بعض علماء المسـلمين طـالب بعـدم أخـذ الأجر المادي من المتعلّم تأسّياً بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ قال تعالى عـلى لسان أحد الأنبياء و هو يخاطب قومه : ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَـالَمِينَ** ﴾ .[٢] و لـذا يقول الغزالي رحمه الله : « على المعلّم أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه فلا يطلب على إفادة العلم أجراً » .

ثـمّ أتـى بيـان الإسـلام الأوّل داعيـاً إلى القراءة بوصفها الوسيلة الأساس لاكتساب المعرفة والثقافة حيث قال تعالى : ﴿ **اقرأ** ﴾ .[٣]

ولعـلّ الصّواب في ذلك أنّ مجانية التعليم أمرُ مطلوب من الدّولة بوصفها مؤسسة المجتمع الكـبرى القـادرة على السّعي من أجل محو الأميّة ، وإشادة صروح العلم العالية ، أما أخذ الأجر عـلى التعـليم مـن قِـبَل الأفـراد فجائـز ، وإن كـان عدم أخذ الأجر على تعليم العلوم الشرعية هو الأفضـل إلا إذا كـان المعـلّم قـد اتّخذ التّعليم مهنة ويتقوّى به على شظف العيش ويعفّ نفسه عن سؤال الناس .

---

(١) الترمذي ، كتاب العلم .

(٢) الغزالي ، الإحياء ج١ . و الآية من سورة : الشعراء ، الآية : ١٢٧ .

(٣) سورة : العلق ، الآية : ١ .

٣ ـ المتابعة المنزلية للدّراسة :

و غنيٌّ عن البيان أنّ الطّفل يبدأ بالتّعلم منذ الأيام الأولى لولادته ، و ذلك عندما يهتف الهاتف في أذنه بنداء التّوحيد ، ثم يزوّد بتعاليم أدبيّة وأخلاقيّة منذ السنة الأولى كي يمتلك تصوّراً معقولاً عن آداب السلام والكلام و الطعام . ولعلّ المتابعة تأخذ أسلوبها الأمثل بـــ :

١ ـ تهيئة الجو المناسب و المشجّع و المساعد للأطفال على الدراسة و استذكار الدروس و إعداد الواجبات المدرسية .

٢ ـ متابعة التّقدّم المدرسي والتّعاون مع المدرسة في معالجة أي مشكلة دراسية تواجههم لأن التّربية الصحيحة لا تكون إلا نتيجة لتعاون الآباء والمعلمين [١].

٣ ـ تشجيع الآباء أبناءهم على المذاكرة وتوجيههم إلى أنسب الطرق في المذاكرة ، منها : أن نحدّد أوقاتاً للمطالعة تشترك فيها الأسرة بمعظم أفرادها. فإن شأن هذا أن ينمّي في نفس الطّفل حبّ المطالعة ، ويغرس فيه حبَّ الجو الساكن الهادئ الّذي يرافق عملية المطالعة والمذاكرة .

٤ ـ تهيئة مكتبة خاصّة للطفل تحتوي ما يحتاجه من كتب مناسبة لعمره ولنموه العقلي. كالقصص الّتي تمجّد الصّدق والإيمان والفداء والكرم ، وتصوّر له أصحاب هذه الصفات تصويراً محبباً مكرّماً في نفسه ، مما يدفعه للاقتداء بهم ، كما يمكنه من خلال هذه القصص أن يقتبس قيماً سلوكية أو دعويّة خيرة .

٤ ـ دراسة وتوصيف المواد الثقافية والتعليمية :

لابدّ من دراسة المواد الثقافيّة و التّعليميّة كي تكون المادة سليمة صحيحة صالحة لنمو العقل عند الطفل . لذا فقد اهتمت التّربية الإسلامية بالتّربية الثقافية المرتكزة على :

١ ـ الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الأخر و القضاء و القدر . وهذا ما يعبُّر عنه بتربية الناشئة على العقيدة .

---

(١) عبد الجليل محمد المحجوب ، هكذا نربي ، ص ١٧٨ .

فالعقيدة أيّاً كان مضمونها ضرورة عقلية نظرية لكلّ إنسان لأنّها تشكّل مركز الطّاقة الّذي ينشّط الحركة والحياة في نفس الإنسان ، لذا لا غنى له عن العقيدة [١].

ولما كان البحث مخصّصاً لتربية الأولاد في الإسلام ، فإنّ العقيدة المقصودة هي العقيدة الإسلاميّة فلا بدّ من استعراض بعض خصائص هذه العقيدة و ثمارها .

أولاً : خصائص العقيدة الإسلاميّة

أ ـ مقنعة للعقل :

أمّا كونها مقنعة للعقل فلأنّها تنسجم مع المبادئ العقليّة الأولى كمبدأ السببية ، و مبدأ الهوية ، و عدم التناقض .

٢ ـ موافقة للفطرة :

و أمّا كونها موافقة للفطرة فلانسجامها مع الحالة النّفسية والوجدانية والشّعورية للإنسان إذ تجدها ملبّية لشعوره الماسّ بالحاجة إلى خالق قادرٍ كريمٍ رحيمٍ يلجأ إليه وقتَ الضّيق ليفكّ أسره ويخفّف من آلامه وأحزانه .

فالإيمان يمثّل الغاية الأولى من بعثة الأنبياء ، وإنزال الكتب السماوية ، كما أنّها الأساس في التشريع ، والمنطلق لجميع شؤون الحياة ، لأنّ التصرّفات البشرية والسلوك الكامل تنبعان من العقيدة والإيمان ، وتتحركان بموجبها وبتوجيهها ، فإذا كانت العقيدة صحيحةً كان الناتج منها صحيحاً أيضاً ، وإذا كانت العقيدة خاطئةً كان الناتج منها خاطئاً أيضاً .

من هنا فإنّ القرآن الكريم جعل قضية العقيدة (الإيمان) القضيّة المركزيّة في حياة الإنسان ، ونظر إليها بوصفها النّعمة العظمى حيث قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .[٢]

---

(١) محمد خير فاطمة ، منهج الإسلام في تربية عقيدة الناشئ ، ص ٧٢ . بشيء من التصرف.

(٢) سورة : الحجرات ، الآية : ١٧ .

كما أنّ العقيدة الإسلامية تتضمّن الإيمان بفكرة نحسبها مصيريةً إذ تحتوي على التّصديق الجازم بوجود أسمى حقيقة وأكرمها ألا وهي قضية الإيمان بوجود الله القادر الخالق السميع البصير .

وعن هذا الإيمان انبثق أعظم تصوّر عن حقيقة الإنسان والكون والحياة ودور الإنسان في هذه الحياة ، ثمّ انتقاله إلى الحياة الآخرة بعد الحياة الأولى من خلال تصوّر محكم عن العلاقة بين الحياة الدنيا هذه والحياة الآخرة مما يورث للإنسانية عيشاً هانئاً متوازناً .و لذا قال سبحانه و تعالى : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** ﴾ (١).

ثانياً : من ثمار العقيدة الإسلاميّة

١ ـ العقيدة الإسلاميّة تمثّل معياراً لقبول الأعمال أو رفضها لذا قال سبحانه عن الذين لم يلتزموا بها :﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** ﴾ .(٢) و ذلك نظراً لفساد تصوّراتهم العقدية . لكنّ الّذين صوّبوا إيمانهم قال فيهم الله تعالى : ﴿ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** ﴾ (٣).

٢ ـ تزوّدُ العقيدة الإسلامية صاحبها بجهاز مراقبة ذاتي يمتاز بالفاعلية الّتي لا تفارق الإنسان أبداً لأنّ هذه العقيدة تزرع في نفس المسلم أنّ الله تعالى يراقب أعماله وسلوكه في كل أحواله ويعلمُ أنّه معه في كلّ تحرّكاته ، وأنّه عليم بكلّ تصرّفاته ، سميعٌ لكلّ كلماته ، بصيرٌ بكلّ أعماله شعاره في ذلك ((الله معي ، الله شاهد عليَّ ، الله يراني ، الله ناظر إليَّ))

---

(١) سورة : الفاتحة ، الآية : ٦ ـ ٧ .

(٢) سورة : الفرقان ، الآية : ٢٣ .

(٣) سورة : مريم ، الآية : ٧٦ .

كـلّ ذلـك يسـتند إلى قولـه تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

٣ ـ تغـرس العقيـدة الإسـلامية في نفـوس النّاشئة والمربّين على حدٍّ سواء روحَ الاطمئنان والـراحة والسـكينة لـذا قـال سـبحانه : ﴿ الَّذِيـنَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .(٢)

٤ ـ تحمـي العقيـدة الإسـلامية في الإنسـان خصـلةَ الإخـلاص لله وتهذّبه فتبعده عن عقد الـرياء وحـب الظهـور لـذا قـال سبحانه و تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

٥ ـ كمـا أن العقيـدة زرع المحـبة للآخرين تنمية للخير لهم و بذا ينجو المرء من أنانيته الّـتي تقـوده إلى عـبادة ذاتـه فقـد قـال رسـول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » (٤).

٦ ـ تدفـع العقيـدة الإسـلامية صاحبها نحو الرضا بقضاء الله وقدره ، وتحثّه على الصبر عـند المصـائب و الابـتلاءات فقـد قـال تعـالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَـنُوا وَعَمِـلُوا الصَّـالِحَاتِ وَتَوَاصَـوْا بِـالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .(٥)وقال على لسان لقمان لمن صبر وغفـر ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور ﴾ .(٦) وقال أيضاً سبحانه : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ (١)

---

(١) سورة : آل عمران ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة : الرّعد ، الآية : ٢٨ .

(٣) سورة : الأنعام ، الآية : ١٦٢ .

(٤) أخرجه البخاري و مسلم .

(٥) سورة : العصر .

(٦) سورة : لقمان ، الآية : ١٧ .

٧ ـ تـربّي العقيـدة الإسـلامية معتـنقيها عـلى الودّ والحبّ . الحبّ أولاً لله ثمّ لرسوله ثم لعامّة المؤمنين فقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (٢) .

وقـال ﷺ مبيّـناً العلاقـة الرّابطة بين المسلمين: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (٣).

وقـد جـاءت الآيـة الأخـيرة مـن سورة الفتح جامعة لمواصفات هامّة في المؤمنين حيث قال سـبحانه و تعالى فيها : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (٤) .

٨ ـ تحـرّر العقيـدة الإسـلامية الإنسانَ من الخوف لاعتقاده أنّ الآجال محتومة مكتوبة لا يقربها أحد ولا يؤخرها إذ أنّهم قرؤوا قوله تعالى : ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٥) .

وثمـار الإيمـان لا تُعـدّ ولا تحصى ، وما ذكرناه إن هو إلا غيض من فيض ، وعلى الرغم مـن هـذا فإنّ ما نوّهنا إليه من أهمية العقيدة تربوياً يكفي لتنشئة النّاشئة على الإيمان السليم طمعاً في حياة دنيوية سـليمة عزيزة ، وحياة أخرويّة مضمونة المستقبل من دون شك ولا ريب .

وإن كـان مـن خاتمـة أختـم فيهـا هـذه الفقـرة فما أجد أفضلَ من قوله تعالى في هذه الآية الجامعة ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة : البقرة ، الآية : ٤٥ .

(٢) سورة : البقرة ، الآية : ١٦٥ .

(٣) أخرجه البخاري و مسلم و أحمد .

(٤) سورة : الفتح ، الآية : ٢٩ .

(٥) سورة : يونس ، الآية : ٤٩ .

(٦) سورة : النحل ، الآية : ٨٩ .

المبحث الرّابع :

علاقة التّربية العقلية بالإيمان علاقة وطيدة مترابطة

١ ـ من الأمور الّتي يجب ألا تخضع لكثير من النقاش أنّ التّربية تعتمد أساساً على نمو الاستعدادات الطبيعية والنّفسية حتّى تبلغ الكمالَ الّذي يمكن أنْ تصل إليه تلك الاستعدادات .

و معلوم أنّ كلّ تربية لا بد أن تعتمد على استعداد طبيعي لأنّه من غير وجود استعداد لا يمكن أن نعلمّ أو نربّي ، فلوجود الاستعداد العقلي نستطيع أن نعلّمَ وننمّي القدرة العقيلة . ولوجود الاستعداد الخُلقي نستطيع أن نعلمّ الأخلاق وننمّي في الإنسان الحاسيّة الأخلاقية والشعور بالمسؤولية وروح الفضيلة [١].

و نظراً لوجود الاستعداد العقلي ، والعلاقات القويّة المحكمة مع الاستعداد الاعتقادي فلا بدّ أن تكون العقيدة مزروعة زرعاً عقلياً على نحو يبعد الاعتقادات الخرافيّة الباطنة المتناقضة مع العقل السليم والنقل الإعتقادي الصحيح الثابت .

ثمّ إنّ التّربية العقليّة الصحيحة القائمة على العقيدة السليمة الصحيحة من شأنها أن تطرد الأوهام العقدية ، وتلقي بالشكوك بعيداً .

٢ ـ إنّ الإيمان يقوى ويضعف بحسب العوامل والظروف المواجهة أو المرافقة . فعندما يرى المؤمنون معجزة من معجزات الله يقوى إيمانهم و لذا قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ .[٢]

---

(١) د . مقداد يالجن ، ج١ / ص ١٤٦ .

(٢) سورة : الأنفال ، الآية : ٢ .

أمّـا إذا تسـلّلت الشـكوك والأمـراض إلى قلوب النّاس فقد تسبّب انهياراً في الاعتقاد و اذا قـال تعـالى في كـتابه العزيز :﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .[١] و قال أيضاً عن الفريق الذي تسلل إلى قلبه المرض ففتك بعقله ومعتقده : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [٢].

وحقّاً يشعر المرء أحياناً بقوّة إيمانية نتيجة زيادته وأحياناً يشعر بضعفه و نقصانه .

((ولّـا كـانت الـتّربية تنمية فإنّنا بالتّربية ننمّي الإيمان في القلوب ونزيده رسوخاً وبذلك ينشـأ الـربّاني الطّـامح إلى إرضـاء ربّه من خلال تربيته لنفسه وللآخرين فقد قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ .[٣]))

---

(١) سورة : التّوبة ، الآية : ١٢٤ .

(٢) سورة : التوبة ، الآية : ١٢٥ .

(٣) سورة : آل عمران ، الآية : ٧٩ .

obeikandl.com

المبحث الخامس :

الوسائل العقليّة في زرع الإيمان

لا بد من اتّخاذ منهج محدّد في تعليم الطّفل من أجل الوصول إلى زرع مكين للعقيدة في قلبه . هذا المنهج نستطيع أن نوجز أهم معالمه بما يلي :

١ ـ تجنب اتباع طريقة التلقين الإلقائي :

وذلك لأنّ الإيمان التقليدي ((لا يخلق في الإنسان حركة وتفاعلاً ، ولا طاقات مثل تلك التي كان الأوائل مزوّدين بها ، وكذلك أصبحت العبادة تبعاً لذلك في نظر أكثر المسلمين طقوساً و عادات أكثر من أن تكون روحاً وإشراقاً وصعوداً في معارج التّرقي ومواصلة التّقرّب إلى الله الخالق باستمرار)) [١].

٢ ـ التّركيز على جوانب العقيدة العملية المؤثرة :

وهذه الجوانب هي الّتي تجعل المؤمن يشعر بأنّ الله سبحانه قريباً منه ، وهذا ما ينسجم مع التصوّر الإسلامي للألوهية و لذا قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ .[٢] فشعور الإنسان المؤمن منذ صغره بقرب الله منه و بأنّه يرعاه في نموّه ويسمع همسه ، ويرى سلوكه وحركته ، يجعل من الإنسان كائناً مرتبطاً بالله الخالق المتّصف بكمالات الصّفات .

---

(١) مقداد يالجن ، جوانب التربية الإسلامية ، ج١ / ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٢) سورة : البقرة ، الآية : ١٨٦ .

و هنا لابدّ أن نتساءل عن المعالم التي يجب أن يزوّد بها الطّفل كي يستشعر القرب من الله سبحانه ؟

١ ـ الإيمان بالله . إذ يقتضي الإيمان به الإيمان بأنّه خالق الكون والإنسان ، وأنّه خَلَقَ من أجل الإنسان كلّ هذه النعم ، وسخَّر له كلّ هذه الأشياء في السماء والأرض [١] فعندما تغرس هذه المفاهيم العقدية يصبح الطفل شاكراً مقرّاً بفضل الله وكرمه وعطائه الّذي لا يُحَدُّ .

٢ ـ الإيمان أنّ اليوم الآخر قادم لا ريب ، وألاّ حياة حقيقية أبدية إلا حياة الآخرة . وألا سعادة دائمة إلا السّعادة في ذلك اليوم ، وألا جزاءَ عدل عدلاً مطلقاً إلا جزاء ذلك اليوم إذ أن الله سبحانه أخبرنا بأننا سنلقى فيه ما نعمله اليوم فقال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .[٢]

٣ ـ الإيمان المطلق بالشّريعة العملية كأحكام المعاملات (البيوع ، الجهاد ، الزواج ، الطلاق ... الخ) على أنّها خير مطلق للعباد ،و فيها لا في غيرها طريق الفلاح ، وسبيل النّجاح لأنّها أحكام منزّلة من الخالق الذي خلق الإنسان وهو الأعلم بما يناسبه فقد قال تعالى : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [٣] .

كلّ هذا الإيمان يجب أن يتوافق مع تصيّد الأمثلة الحيّة من الحياة اليومية والدلائل العلمية الكثيرة الّتي جاءت اليوم لتؤكّد أنّ الأحكام الشرعية فيها الخير للإنسانية في كافّة المجالات وعلى جميع الصُّعد .

٤ ـ التّركيز على ما يمتلكه الإسلام من عظيم المعجزات العلميّة والتّشريعيّة والتّربويّة وخاصّة الجوانب التي أضحت بدهيّة كي يتمكّن المسلم من الدّفاع عن دينه ويحملُه حملاً مبدئياً

---

(١) مقداد يالجن ، جوانب التربية الإسلامية ج١ / ص ١٥١ .

(٢) سورة : الزلزلة ، الآيتان : ٧ ـ ٨ .

(٣) سورة : الملك ، الآية : ١٤ .

يحـدوه الاعـتزاز بـه ، والافـتخار بمـنطقه المقـنع الذي يتميّز بملاءمته للمجتمع وعدم خصوصيته لطـبقة العـلماء أو الفلاسـفة ، إنّمـا هـو دين لكلّ الفئات ، وكلُّهم يطلبُ منهم فهمه وحمله رسالةَ إنقاذ وحب وتسامح للعالم أجمع .

٥ ـ التركيـز عـلى ألاّ يكـون ولاء في قـلب الطفـل إلاّ لله ورسوله : وأنّ البشرية محتاجة لهـذا الإيمان وهذا الولاء ، وعلينا أن نكوّن الرغبة بالاعتقاد في داخل نفوس الناشئة وذلك أنّه مَنْ لا يـرغب أوّلاً في الاعـتقاد لا يعـتقد ولـو ذكرتَ له جميع الأدلّة العقلية والعملية ، ولهذا لّما تكلّم الله تعالى عن هؤلاء الذين لا يريدون أن يؤمنوا لا لعدم وجود الأدلة وإنما لعدم رغبتهم في الإيمان[١] قـال تعـالى : ﴿ وَلَـوْ أَنَّـنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ .[٢] و قال: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَـا ﴾ [٣] وهـذا مـا يقولـه العـالم باسـكال : ((إنّ معرفة الإنسان بالله تابعة لإرادة الإنسان لا لعقلـه)) و كـذا يقـول جـيمس مقـرّراً أهميـة الرغـبة في الاعـتقاد : ((فالرّغـبة في نوع معين من الحقيقة هي الّتي تُوجد هنا ذلك النوع المعين منها)) .

إذاً كيف نكوّن الرغبةَ في الاعتقاد :

١ ـ بيان أنّ في هذا الاعتقاد مصلحة البشرية المطلقة :

إذ الاعـتقاد أعظـم مـن كـلّ المصـالح الأخـرى لـذا دعـا الإسلام إلى الإيمان بوحدانية الله وبرسـله ، ورغّـب في ذلك لما في هذا الإيمان من المصالح العظمى للبشرية فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَـلْ صَـالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [٤].

---

(١) مقداد يالجن ، جوانب التربية الإسلامية ج١ / ص ١٥٢ .

(٢) سورة : الأنعام ، الآية : ١١١ .

(٣) سورة : الأنعام ، الآية : ٢٥ .

(٤) سورة : التّغابن ، الآية : ٩ .

وقال أيضاً : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .(١) وقال : ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا ﴾ .(٢) بل إنّ الله تعالى يقود القلوب المؤمنة إلى الرّاحة والاطمئنان من خلال اليقين الذي تصل إليه فقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .(٣) ثمّ إنّ الله تعالى يوفّق مَن أراد الهداية و معلوم أنّ الله لا يريد هداية أصحاب الأهواء الطائشة و لذا قال سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤).

٣ ـ ضرورة أن يصل المرء إلى أنّ الإيمان بالله وبرسوله ضرورة ملحّة :

و ذلك على نحو تصبح مظاهر الإيمان مسيطرة على العقل ، ومحل تركيز انتباه واهتمام للدّرجة الّتي يستطيع الإيمان من خلالها ومن خلال التّربية العقلية السليمة قادراً على طرد الأفكار المخالفة ، وخاصّة الّتي تقف مع الإيمان على طرفي نقيض .

٤ ـ ضرورة العمل على إزالة العوائق المختلفة الّتي تحول دون إيمان المرء بالحق :

ومن هذه العوائق : التعصّب والعناد . وقد شَخّصَ القرآن بعض النماذج التي حرفها التعصب والعناد عن جادة الحق والإيمان فقال في حقّ بعض الأقوام الّتي كذّبت أنبيائها : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ (٥).

---

(١) سورة : التّغابن ، الآية : ٩ .

(٢) سورة : الجن ، الآية : ١٣ .

(٣) سورة : التّغابن ، الآية : ١١ .

(٤) سورة : الجاثية ، الآية : ٢٣ .

(٥) سورة : الحجر ، الآية : ١٤ ـ ١٥ .

ومن العوائق الاستكبار و قد حدّثنا الله سبحانه عن أقوام منعهم الاستكبار من الإيمان فقال :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .من هنا جاء الجزاء الإلهي منسجماً مع سلوكهم الاستكباري المعاند إذ حرمهم نعمة الإيمان لدرجة أنّهم لو رأوا بأعينهم سبيل الحق والرشاد ، فإنهم ينصرفون إلى سبيل الغي والضلال فقال : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (٢) .

ومن العوائق الصّارفة عن الإيمان تحجيم العقل وجعله محكوماً بالحواس ذات المجال المحدود مما يحدّد مجاله الإدراكي بمحدوديّة الحواس ، وبذلك ضيقوا في مجال نعمةِ العقل الّتي أكرم الله بها الإنسانية ، منحدرين بذلك إلى مستوى الحيوانية الهابطة بل كانوا أشدّ هبوطاً لتعطيلهم القدرات العقلية التي مُنحُوا إيّاها فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ۞ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً ﴾ .(٣)وواضح من هذا النصّ الكريم أن مطالبهم كانت في جملتها حسيّة ، وبذلك أغلقوا عقولهم ، وعطّلوا أداة الإدراك الفاعلة ، لذا وصفهم البيان الإلهي بوصف يستحقونه وهو الانحدار إلى مستوى الحيوانية الهابط فقال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ

(١) سورة : البقرة ، الآية : ١٣ .

(٢) سورة : الأعراف ، الآية : ١٤٦ .

(٣) سورة : الإسراء ، الآية : ٩٠ ـ ٩٣ .

لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .[١]

وفي مجال التّربية يجب النُّهوض بمستوى المتعلّمين والمربّين لتتفتّح بصائرهم وتنمى عقولهم لنقنعهم بتلك الحقائق الرّوحية ، ونكشف عن أعينهم وعقولهم وقلوبهم العوائق والأغطية الحاجبة للحقائق لكي نمكّنهم من إبصار الحقائق الإلهية الكبرى [٢]. مدركين أنّ ((لكلّ نوع من الحقائق منظار آلي خاصّ بتلك الحقائق فقط ، وقد لا يرى الإنسان حقائق أخرى ماديّة أو حسيّة ليس من قدرة ذلك المنظار إظهارها حتّى أنّ لبعض الجراثيم تلسكوباً لا يرى به بعض الجراثيم الّتي هي أدقُّ وأصغرُ من تلك الّتي صُنِعَ من أجلها ذلك التلسكوب . ومن الخطأ محاولة إظهار الحقائق الإلهيّة بالمنظار المادّي . والمنظار الإسلامي هنا هو منهج التفكير الإسلامي))[٣] .

٥ ـ ضرورة الدعوى الحكيمة وفق تربية وتعليم حكيمين :

فقد قال تعالى : **﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾** [٤].

٦ ـ ضرورة أن يكون المربي الداعي حاملاً لحجة الإقناع المتعددة اللازمة :

ولا يجوز للمربي أن يكون جاهلاً ، ولا للدّاعي أن يكون غافلاً عن العلم لذا فقد ذمّ القرآن الذين يجادلون بغير علم فقال : **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾** [٥] .

---

(١) سورة : الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

(٢) استفدتُ كثيراً في هذا بحث العوائق من كتاب جوانب التربية الإسلامية .

(٣) مقداد يالجن ، جوانب التربية الإسلامية ج١ / ص ١٥٧ .

(٤) سورة : البقرة ، الآية : ١٢٩ .

(٥) سورة : لقمان ، الآية : ٢٠ .

و لهذا الاقناع العقلي وسائل متعددة منها :

أولاً : استخدام الأدلة البدهيّة الفطرية للإقناع العقلي وتنمية التفكير الفطري لدى الطفل

إنّ طبيعة العقول تأنف الكلام المعقدّ الجاف ، وتتقبّل الكلام الواضح البسيط وهذا من شأن الفطرة السليمة الّتي لم تلّوث بعد . ومن الأدلّة الفطرية الواضحة :

١ ـ الاستدلال على وجود شيء غير مرئي بوجود دلائل مرئية أو حسية كأن تقول : إن مشاهدتنا لطاولة تحتوي على أدراج وذات أبعاد منتظمة دليل على وجود النجار العالم بمهنته ، ولو لم تر عيونُنا هذا النجار .

٢ ـ البرهنة على أنَّ إعادة الشيء أسهل من إيجاده ، كأن نقول : إنّ المهندس الذي صنع هذه السيارة قادر على إعادة صنعها أو صنع واحدة مثلها مرّة أخرى على نحو أسهل وأيسر

٣ ـ قولنا : الصنعة تدل على الصانع ، والأثر يدلُ على المؤثر .

٤ ـ قولنا : الشيء لا يكون موجوداً وغير موجود .

و لذا جاء في القرآن الكريم أنواع عديدة من النصوص التي ساقت أدلّةً فطريّةً مثل قوله سبحانه و تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ .[١] وقوله : ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ .[٢] وقوله لمن استغرب أو تعجب تعجباً إنكارياً أن يكون المسيح ﷺ ولد من دون أب : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ .[٣] أي أيّها المنكرون لولادة عيسى من أم دون أب لماذا قبلتم خلق آدم و هو الذي خلق من غير أم و لا أب ، فالأَوْلى بكم أن تنكروا خلق آدم فهو أعظم من خلق عيسى .

---

(١) سورة : الرّوم ، الآية : ٢٧ .

(٢) سورة : يس ، الآية : ٧٩ .

(٣) سورة : آل عمران ، الآية : ٥٩ .

لـذا فـإنّ القرآن الكريم طالب العقل البشري بالنّظر بالمحسوسات نظرَ فكرٍ واستدلالٍ على الصـنائع الخـالق ، وهـذا الضـربُ من الاستدلال والتفكير يناسب كلّ النّاس على تعدد مستوياتهم فقـال : ﴿ قُـلِ انْظُـرُوا مَـاذَا فِـي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .[١]وقال : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۞ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيـــمِ ۞ وَالْقَمَـرَ قَدَّرْنَـاهُ مَـنَازِلَ حَـتَّى عَـادَ كَالْعُـرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [٢].

وآيـات الله بـارزة واضـحة في الآفـاق كمـا أنّهـا بـارزة واضـحة في المـأكولات والأنفـس والحيوانـات ((وعـلى المـربّي أن يوجّه نظر مَن يريد تربيتهم إلى تلك الحقائق ويريهم ما فيها من دلالات عـلى صناعة الصّانع الحكيم ليزيد إيمانُهم كلّما رأوا آية تدلّ على وجود الله المبدع الكريم وذلـك حسـب نمـوّ مداركهـم ، ومستوى ثقافتهم وتعليمهم ، وذلك وفقاً لتوجيهات نظريّة التّربية والتّعليم في الإسلام الّتي تدعو إلى دراسة الحقائق من ناحيتين :

دراسـتها من حيث هي حقائق ، ودراستها من حيث دلالتها على الصنع والإبداع والتّجميل))[٣].

ويقـول الأسـتاذ جـون وسـكين أسـتاذ الفـنون الجميلة في جامعة أكسفورد : ((إنّ جمال الجـبال و الأزاهـير إشـارة مـن الله إلى الإنسان . والإنسان الّذي يتأمّل الجمال في الطبيعة وفي الفن إنّما يتحدُ بالتّعاطف مع الجمال الذي صنعه الله والذي صنعه الفنان)) [٤].

---

(١) سورة : يونس ، الآية : ١٠١ .

(٢) سورة : يس ، الآية : ٣٧ ـ ٤٠ .

(٣) مقداد يالجن ، ج١ ص ١٥٩ .

(٤) عادل العوا ، المذاهب الأخلاقية ، ص ٩٢ و ٥١٦ و ٥١٧ بشيء من التصرف .

ويقول الفيلسوف الألماني ليبتز :((ما من مرّة نرى فيها أحد مصنوعات الله إلا وجدناها غاية في الكمال ، ويجب أن نبدي إعجابنا بجماله ودقّة صنعه)) [١].

ومن الأدلة الّتي استخدمها الإسلام : أنّ الّذي يخلق أشياء كبيرة معقّدة الصنع يستطيع أن يخلق أشياء أصغر منها وأبسط . وبهذه الفكرة ردّ على الّذين أنكروا خلق الإنسان [٢]إذ قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ .[٣] وقال أيضاً : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ و الأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [٤].

ومن تلك الأدلة : عناية الخالق عنايةً تتلاءَم مع وضع الإنسان وحاجاته في الحياة [٥] فقد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۞ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۞ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۞ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ .[٦] وفي هذا دلالة على أنّ الّذي خلق الإنسان خلق كذلك له خلقاً آخر يتناسب مع حاجته و طبيعته وهذا فيه من القدرة والإحاطة واللطف والعناية والإبداع مالا يتوافر إلا في الله الخالق القادر الحكيم البديع .

---

(١) د . محمود قاسم ، ابن عربي وليبتنز ، ص ١٢٦ .

(٢) مقداد يالجن ، جوانب التربية ج١ / ص ١٦١ .

(٣) سورة : يس ، الآية : ٨١ .

(٤) سورة : غافر ، الآية : ٥٧ .

(٥) مقداد يالجن ، جوانب التربية ج١ / ص ١٦١ .

(٦) سورة : النّبأ ، الآية : ٦ ـ ١٦ .

ثانياً : الاستفادة من مكتشفات العلوم الحديثة في إثبات الإيمان :

لقد كان للاكتشافات المذْهلة في العقود الأخيرة من هذا القرن دور بارز في تأسيس انتصارات علمية فكريّة لصالح الإيمان ، ولذا جاءت الدعوة إليه على ألسنة علماء الفيزياء والكيمياء والفضاء الّذين أخرجوا لنا الكتاب المشهور (الله يتجلى في عصر العلم) و (العلم يدعو إلى الإيمان) لكربيس موريسون .

كما أنّ علم الطب قدّم لنا دراسات علمية و كشوفات هامّة لها من القيمة الطبيّة والعلمية الأهميّة البالغة . ثمّ كان لها الأثر الأبرز على قضية الإيمان ، فقد شبه بعضُ علماء الطبّ المعدة بمعمل فعَنْوَنَ إحدى مقالاته العلمية بعنوان : (أعظم معمل في العالم) فتحدّث عن الوسائل والآليات التي تقوم بها المعدةُ عند تحليلها للأطعمة وتجهيزها من جديد لتقدّم باستمرار إلى كلّ خلية من ملايين الخلايا التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كلّه على وجه الأرض)) [1].

وهكذا إذا تأمّلنا وظيفة المخّ وسائر الأعضاء نجد فيها العجب العجاب ، ولهذا نجد بعضهم يقول هنا : ((ففي الواقع لا يوجد شيء مثل الإنسان نفسه محيّر مثير)) و في هذا إقرار بأحقيّة قوله تعالى السّباق إلى إظهار معجزة الخلق كي يوجد الحافز على البحث والاكتشاف الّذي يخدم الإنسانية من جهة ، ويدفع نحو الإيمان من جهة أخرى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [2].

---

(١) مقداد يالجن ، جوانب التربية ، ج١ / ص ١٦٤ .

(٢) سورة : فصّلت ، الآية : ٥٣ .

والمغزى التربوي هنا هو ((إنّه يجب على المربّي أن يكشف هذه الحقائق لمن يريد تربيتهم ويفصّلها حتّى يُصوّرَها لهم وكأنّها صورة مجسّمة أمام أعينهم ليستطيعوا إدراك عجائب صناعة الله وما خلقهُ من عجائب تقف أمامها أكبر العقول ساجدة إكباراُ وتعظيماً . وذلك ليؤمنوا عن رؤية حقيقية إيماناً راسخاً لا يتزعزع مهما هبت عليه رياح الإلحاد)) [١].

فالكشوفات العلميّة في كافّة المجالات والأصعدة يمكن استثمارها في قضية الإيمان واتّخاذها براهين ناطقة على وجود الله الخالق .

وختاماً ننوّه إلى أنّ العقيدة هي الّتي تنعقد عليها القضايا وتبنى عليها ، كما أنّها العقدة الكبرى وسواها عقد صغرى ، فإذا توصّلنا إلى أشكال العقدة الكبرى سهل علينا حلّ بقية العقد واستطعنا أن نبني الشخصيّة الإسلامية بناءً محكماً متناسباً متوازناً .

(١) مقداد يالجن ، جوانب التربية ج١ / ص ١٦٦ .

obeikandl.com

المبحث السّادس :

التّربية العقلية والبناء العلمي للنّاشئة

المطلب الأوّل : تعريف العلم

العلم في اللغة : علم من صفات الله عزّ وجلّ العليم والعالِم والعلاّم فقد قال عز وجل في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ .[١] وقال أيضاً : ﴿ قالوا اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ .[٢] وقال : ﴿ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [٣] .

والعلم نقيض الجهل[٤] .

والعلم في الاصطلاح : هو تحصيل المعرفة والتزود منها بما يرفع جهل الإنسان بهذا الوجود [٥].

ومادام العلم تحصيلاً فهو اكتساب ، والاكتساب يحتاج إلى جهد مخطط .

ولفظ العلم جاء في القرآن الكريم كثيراً منها قوله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [٦] .

المطلب الثّاني : حضّ الإسلام على العلم

ولذا فإنّ الشّريعة الإسلامية تدعوا إلى العلم بمعناه الشامل إذ حض الإسلام على العلم .

---

(١) سورة : الحجر ، الآية : ٨٦ .

(٢) سورة : الزمر ، الآية : ٤٦ .

(٣) سورة : المائدة ، الآية : ١٠٩ .

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة علم .

(٥) محسن محمد عطوي ، زاد المبلغين ، ص ٨٦ .

(٦) سورة : محمد ، الآية : ١٩ .

ولم يعرف تاريخ الإنسانية ديناً ركّز على العلم التّركيز الّذي ركّز عليه الإسلام فقد قال الرسول ﷺ « العلم فريضة على كل مسلم »[١] و أعلى الله سبحانه مرتبة العلماء بقوله في الرقرآن الكريم : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُوْنَ ﴾ .[٢] كما دعا إلى النّظرة العالمة الفاهمة في قوله: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .[٣] حيث أنّ القرآن هنا في تعبيره وتصويره قد لفت الحسّ والقلب والعقل للنظر إلى ما في السّموات والأرض كوسيلة من وسائل المنهج القرآني ، لاسيّما القلب الإنساني لعلّهُ ينبض ويتحرك ، ويتلقى ويستجيب[٤].

فالعلم الّذي يدعو إليه الإسلام هو العلم بمفهومه الشامل ، الّذي يتّصل بالحياة وكلّ ما يعود بالمنفعة على المسلمين وعلى الإنسانيّة في دنياها و آخرتها ، وهذا ما ينسجم مع مفهوم التّربية العقليّة لأنّ التّربية تنمية وتطوير ورعاية للعقل ودفع له في معارج النّهضة والرِّفعة و العز؛ لذا جاء طلب القرآن الكريم بالاستزادة من العلم في قوله ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [٥].

المطلب الثالث : فضل العلم ومحاسنه

أورد ابن عبد البر بإسناده عن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [٦] قال : في العلم [٧].

---

(١) أخرجه البخاري و مسلم و أحمد .

(٢) سورة : الزمر ، الآية : ٩ .

(٣) سورة : يونس ، الآية : ١٠١ .

(٤) ظلال القرآن ، ج٣ / ص ١٨٢٣ .

(٥) سورة : يوسف ، الآية : ٧٦ .

(٦) سورة : الإسراء ، الآية : ٥٥ .

(٧) ابن عبد البر ، الجامع لبيان العلم ج١ / ص ٢١٨ .

وجميلٌ ما قاله علي بن أبي طالب ﷺ شعراً :

النّاس في جهة التمثيل أكفاءُ أبوهم آدم والأمُّ حوّاءُ
نفسٌ كنفسٍ ، وأرواح مشاكلةٌ وأعظم خُلِقتْ فيهم وأعضاءُ
فإن يكن لهم من أصلهم حسبٌ يفاخرون به فالطينُ والماءُ
ما الفضل إلا لأهل العلم إنّهمُ على الهدى لمن استهدى أدلاّءُ
وقدرُ كلّ امرئ ما كان يحسنُه وللرجال على الأفعال أسماءُ
وضدُّ كل امرئٍ ما كان يجهلُه والجاهلون لأهل العلم أعداءُ [1]

والعلم هو الأداة الكاشفة عن الحق إذا ما أراد المعاندون سترَه ، وهو المنَوّرُ قلب صاحبه و يرحم الله القائل : بنور العلم يكشف كلُّ ريبٍ و يبصر وجهَ مطلبه المريدُ [2]

وقال السابق البلوي[3]: والعلمُ يجلوُ العمى عن قلّبِ صاحبه كما يجلي سوادَ الظلّمةِ القَمرَ
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ولا البصيرُ كأعمى ماله بصرُ [4]

وروى ابن عبد البر بإسناده عن الزهري قال: ما عُبد الله بمثل العلم [5] .

ومن شرف العلم ومكانته اهتمامُ أشرف الخلق محمد رسول الله ﷺ به ، ففي موقعة بدر ليلة السابع عشر من رمضان من السّنة الثّانية للهجرة حيث انتصر فيها جند الله وقتل المسلمون من المشركين سبعين رجلاً وأسروا مثل هذا العدد أمر رسول الله ﷺ كلّ أميرٍ كاتبٍ من المشركين أن يعُلّمَ عشرةً من أبناء الصحابة القراءة والكتابة ، وجعل التّعليم فديةً لهم ، ووسيلة إلى تخليص

---

(١) ابن عبد البر الجامع لبيان العلم ج١ / ص ٢١٨ والأبيات من البحر الكامل .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٠ من البحر الوافر .

(٣) السابق البلوي هو ابن البلوي ابن عبد الله أبو سعيد . عُرِف باسم البربري الأغاني ٦/ ٥٧ .

(٤) الأبيات من البحر البسيط .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٥ وقال أبو الأشبال: صحيح .

رقابهم من الأسر . فقد جاء في الطبقات الكبرى أن النبيَّ ﷺ أسر يومَ بدر سبعين أسيراً وكان يُفادي بهم على قدرِ أموالهم ، وكان أهل مكّة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ، فمَن لم يكن له فداء دفعَ إليه عشرةُ غلمان من غلمان المدينة فعلّمَهم فإذا حذقوا فهو فداؤه [١].

المطلب الرّابع : السُّنة النّبوية تحثُّ على تعليم الصغار

العلم وسيلة فعّالة من وسائل تغيير ظروف العيش، والعلم قدرة يكتسبها المُتَعلم يستعين بها على تغيير واقعه الاجتماعي بتشعباته وتفرعاته . ومعلوم حديث الرسول ﷺ عندما كان يُسدي نصائحه الشّرعية والعلمية للصحابة مثل قوله ﷺ : ((يا غلام سمِّ الله وكل بيمينك وكُل مما يليلك)) [٢]. كذلك فإنّه ﷺ في حادثة أسرى بدر طلب الرسول ﷺ من أسرى قريش افتداء أنفسهم بتعليم غلمان الصحابة رضي الله عنهم كما مرّ ، و في هذا بيان ناصع لحرص الرسول ﷺ على تعليم الصغار في أحلك الظّروف وأقساها ، وهذا إن دلَّ على شيء فإنّه يدل دلالة قاطعة على مدى اهتمام الرسول ﷺ بالعلم والتّعليم ، و لا غرابة في ذلك لأنّه هو رسول العلم حامل ﴿ اقرأ ﴾.

المطلب الخامس : سن تعليم الطفل

لا يوجد سنٌ معيّنة ملزمة يبدأ عندها تعليم الطفل ، إنما تعليمه يحدّد وفق مراحل نموه العقلي والفكري ((فيُعلَّم أولاً النطق ، ثمّ الكلام ثم يؤخذ بتعليمه القراءة والكتابة ، ومعرفة أمور دينه)) [٣] و قال أبو بكر بن العربي : ((وللقوم من التعليم سيرة بديعة ، وهو أنّ الصغير منهم إذا عَقَلَ بعثوه إلى الكتّاب)) [٤]. والسبب في ذلك أنّ مرحلة الطّفولة هي مجال إعداد وتدريب

---

(١) ابن سعد ،الطبقات .

(٢) أخرجه البخاري و مسلم و غيرهما .

(٣) سهام مهدي جبار ، الطفل في الشريعة الإسلامية ، ص ٣٨٣ .

(٤) أبو بكر بن العربي ، أحكام القرآن ، ج٢ / ص ٢٩١ .

وتعليم ، كما الطّفل يكون في هذه المرحلة أكثر استعداداً للتعليم ، حيث يكون أقوى ذاكرةً و استعداداً . وإلى هذا أشار الرسول ﷺ بقوله : « مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الحجر . و مثل الذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء » [١].

وعن الحسن بن علي ﷺ : ((تعلّموا العلمَ فإنّكم صغار قومٍ وتكونون كبارُهم غداً ، فمن لم يحفظ منكم فليكُب)) [٢].

وروي عن هشام بن عروة عن أبيه أنّه كان يجمع بنيه فيقول لهم : ((يا بَنيَّ تعلّموا . فإنْ تكونوا صغار قومٍ فعسى أن تكونوا كبارَ آخرين ، وما أقبح على شيخ يُسأل ليس عنده علم)) [٣].

وجميل ما قاله أهل الشّعر والأدب في أهميّة العلم والتأديب للصّغار قبل أن تقسو قلوبهم ويشتعل شيبهم في رؤوسهم ، فقد قال أميّة بن أبي الصلت :

إنّ الغلام مطيع مَن يؤدّبه ولا يطيعُك ذو شيب بتأديبِ

وقال آخر : يقوَّمُ بالثقافِ العود لَدْنا ولا يتقوّم العودُ الصليبُ

وقال سابق البربري : قد ينفع الأدبُ الأحداثَ في مهل وليس ينفع عند الكبرةِ الأدبُ

إنّ الغصون إذا قوّمتها اعتدلت ولن يلينَ إذا قومتَهُ الخشبُ

---

(١) عبد الله علوان ، تربية الأولاد في الإسلام ، ج١/ ص ٢٦٧ . و الحديث أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء .

(٢) ابن عبد البر ، الجامع ج١/ ص ٣٥٨ . وأخرجه الدارمي في سننه .

و البيهقي وقال المحقق أبو الأشبال : إسناده حسن ، وله روايات أخرى ضعيفة .

(٣) أخرجه الدارمي . و قال المحقق أبو الأشبال في تحقيق الجامع لبيان العلم : إسناده صحيح ج١ / ص ٣٦٠ .

المطلب السّادس : الوسائل التربوية

أوّلاً : المدرّس

١ ـ دور المدرّس في بناء شخصية الطفل :

نذكر أنّ التّعليم هو تعديل السلوك عن طريق كسب الخبرة [١].

فإذا كان التّعليم يشتمل على جميع شؤون الحياة ، فهو يشتمل على قضايا تنظيم السلوك والعقل والجسم والوجدان ، لذا فإنّ العناية واجبةٌ به على كافّة الصُّعد و منها انتقاء المدرس الناجح باعتبار أنّ عمليّة التّعليم عمليّة تجري بين معطٍ وآخذ ، والمدرّس النّاجح يتسم بصفات أهمها :

١ ـ الصدق والأمانة والإخلاص والتجرّد مع إيمان لا حدود له بمهامه الكبيرة ورسالته السامية ، ثم الحلم والأناة ، واللطف واللين وغير ذلك . يقول أحمد عبيد : ((يكاد يكون هناك إجماع على أنّ المعلّم هو أهم عامل في العملية التّربوية . فالمعلّم الجيّد حتّى مع المناهج المختلفة يمكن أن يحدث أثراً طيّباً مع تلاميذه ، وعن طريق الاتّصال بالمعلّم يتعلم التّلاميذ كيف يفكّرون وكيف يستفيدون مما تعلّموه في سلوكهم . ومهما تطوّرت تكنولوجيا التّربية واستعملنا وسائل مثل التلفزيون التعليمي فلن يأتي اليوم الّذي نجد فيه شيئاً يعّوض تماماً عن وجود المعلّم)) .[٢]

وموقع المعلّم يمثّل مكانة هامّة إذ يأتي موقعه من حيث الأهميّة بعد الأبوين ولذا قال أرسطوطاليس مشيْداً بدور المربّين : ((إنّ مَن يربّي الأولاد بجودةٍ ومهارة الأحقّ بالاحترام والإكرام مِن الّذين ينجبونهم)) [٣].

---

(١) أشرنا إلى صفات المربي على نحو عام في القسم الثاني فراجعه .

(٢) أحمد حسن عبيد ، فلسفة النظام التعليمي ، وبنية السياسات التربوية ص ٣٥٤ .

(٣) حنا غالب ، التربية المتجددة وأركانها ، ص ٣٥٣ .

وخطورة موقع المعلّم المربّي تبرز من خلال الدّور المناط به لأنّه يربّى أطفالاً ، والطّفل ميّال فطرياً للمحاكاة ، فهو يقلّد مَن يربّيه بقصدٍ وبغير قصد ، وبما أنّ المعلّم أقرب النّاس له بعد الوالدين كان أكثر النّاس تأثيراً على عقله ، وأكثر دوراً في بناء شخصيته وتكوين طباعه واتجاهاته ولذا يجدر بالمربّي قبل أن يربّي غيَره أن يربّي نفسه ويطوّعها تطويعاً طيباً حسناً لأنّ عيون الأطفال معقودةٌ بعيني مربّيهم ، فالحسن عندهم ما صنع المربّي ، والقبيح عندهم ما نهاهم عنه .

وهذا يقودنا بالتّأكيد إلى الحديث على المربّي القدوة . وجميلة تلك الوصية الّتي أوصى بها الرشيد مربي ابنه محمّد الأمين عندما قال : ((يا أحمد : إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصيّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرّفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وبصّره بمواقع الكلام ، ولا تمرنّ بك ساعة إلا وأنت مغتنمٌ فرصةً تفيدها إيّاه ، من غير أنْ تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة)) .

٢ ـ على المعلّم حسن اختيار وسائله التربوية : فمن وصيّة الرّشيد يظهر لنا أنّ الأخذ بوسيلة الشدّة وارد إذا لم ينجح اللينُ واللّطف في تقويم اعوجاج مَن يُراد تربيته ، وهذا يتطلّب من المعلّم النّباهة وحسن اختيار الأدوات المناسبة حسب كلّ مربّى وحسب كلّ موقف دون إغفال لعاملي الزمان والمكان .

٣ ـ القدوة الحسنة : فقد رأى ابن خلدون أنّ الأطفال يتّأثرون بالمحاكاة (التقليد) لذا كان على المعلّم أن يدرك أنه محلّ للتّأسي من قِبَل تلامذته ، وهو مسؤول عن سلوكه وسلوكهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وهم (أي الأطفال) يتأثّرون بالتّقليد العملي أكثرْ من تأثّرهم بالنصح والوعظ والإرشاد [١] وإن كان هذا النّصح لا غنى للمربي عنه . وهنا نرى أنّ رسالة عمرو بن عتبة

---

(١) محمد عطية الأبرشي ، التربية الإسلامية وأعلامها ، ص ٢٧٧ .

إلى أحد المعلّمين لولده حيث قال : ((ليكن إصلاحُك لولدك إصلاحَك لنفسك ، فإنّ عيونهم معقودة بعينيك فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت ، علّمهم كتاب الله ولا تملّهم فيه فيكرهوه ، ولا تتركهم فيه فيهجروه ... الخ)) [١].

من هذا يظهر أنّ المدرّس ذو أثر إصلاحي كبير ، فهو زيادة عن مهمّته في إيصال المعلومات الطاردة لظلمات الجهل محلّ قدوة من تلامذته ، فهو مصلح لهم بإقتدائهم الحسن به ولعلّ وجود مدرّس اتّسم بالصدق والإخلاص والسلوك القويم ، وقوة الشخصية قد يغيُّر مدرسة كاملة نحو الأصلح والأفضل لأنّه في سلوكه هذا يبثّ في روح الناشئة وزملائه في التدريس روحاً طيّبة ، ودوافع كريمة في خير البلاد والعباد والإنسانيّة قاطبةً ، وهذه مهمّة صعبة شبيهة بمهام الأنبياء الّذين اصطفاهم الله ، و ما مهام المعلّم إلا امتداد أو تلبية لدعوات المربّين الأُوَل من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة السلام .

و لا يستحق برأينا ذلك اللقب العظيم (لقب معلّم) إلا مَن ترفّع من الدنيا ونأى بنفسه عن الأفعال الذميمة .

٤ ـ اكتشاف الفروق الفرديّة : الطّفل هو الثّروة الثمينة نضعها بين يدي المعلمين ليملؤوا هذا الوعاء النّظيف بمادّة ثمينة نظيفة تصلح من شأنه في دنياه ، وترفع درجته في آخرته . و السّبيل لذلك اكتشاف الفروق الفردية بين التلاميذ الصغار .

أعود قليلاً لأنوّه إلى دور الوالدين :

((يُعتبر الوالدان المدرسة التّربوية الأولى التي يتلقّن بها الطفل مبادئ التّربية في مجالات الحياة والعلم ، فهما مكلّفان بتعليم الطفل حسب مقتضيات فهمه وقدرته واستعداده وميوله . فمحيط الأسرة مدرسة تستطيع أن تنمّي في الطّفل المواهب الكامنة والقدرات والميول في نفسه)) [٢].

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد .

(٢) سهام مهدي جبار ، الطفل في الشريعة الإسلامية ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ .

و وفقاً لذلك فعلينا أن نكتشف ميول الطفل العلميّة والعقليّة من خلال مراقبتنا الجادّة لهواياته ، ومن هنا علينا أن نمنح الطّفل الفرصة الكافية للاختيار في مجال التّعليم كي تتناسب ميولُه العلميّة مع دراسته . واختياره ليس منعزلاً عن توجيهات المربّين داخل البيت أو خارجه لأنّ الغرض من التّربية تنمية ميول متعدّدة النواحي في نفس المتربي [١] .

فإذا ظهرت قدراته وإمكانياته ودوافعه نحو اختصاص علميّ بذاته فليس علينا أن نرغمهُ على تغيير اتّجاهاته ، و يخطئ المربون كثيراً عندما يرغمون أولادهم الّذي توجّه لدراساتٍ أدبية إنسانية أو تاريخية كي يتّجه إلى دراسة الرياضيات أو الهندسة غيَر مدركين أنّ التّوجهات نابعة من ميول فطريّة وقدرات ذاتية كامنة داخل المتربي.

إذاً لنجعل أساس التّربية والتّعليم مراعاة قدرات الأطفال وميولهم وتوجهاتهم حسب كلّ فرد ، وهذا ما سمّاه علماء التّربية بـ (مراعاة الفروق الفردية) و هنا يقول حنّا غالب :((ما من تلميذين يستجيبان لمؤثّرات ظرف تعليمي معيّن الاستجابة نفسها ، بل يسلكُ كلٌّ منهما سلوكاً فريداً خاصّاً نتيجةً للفروق الفرديّة القائمة بينهما في الوراثة والبلوغ الجسدي والذكاء والمهارات العضليّة والعقليّة والحالة الصحيّة والخبرات السابقة والمواقف اللاحقة والحركات النفسيّة والدوافع والأذواق)) [٢].

أما إذا كانت المعارف والعلوم الّتي يراد زرعها في نفس التلميذ لا تنسجم مع ميوله وقدراته فهذا يسبّب للطفل كرهُ المادة العلمية ، وملل من التعلم .

والأمر نفسه إذا أردنا أن نزوّد الطّفل بعلوم غير متناسبة مع مستواه الإدراكي والمعرفي و في ذلك يقول ابن خلد ون : ((وإذا ألقيت عليهم الغايات في البدايات ، وهو عندئذٍ عاجز عن الفهم والوعي ، وبعيدٌ عن الاستعداد له ، كلَّ ذهنه ، وحسِب ذلك في صعوبة العلم في نفسه

---

(١) سهام مهدي جبار ، الطفل في الشريعة الإسلامية ص ٤٠٠ .

(٢) حنا غالب ، التربية المتجددة وأركانها ، ص : ٤٥ .

فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله ، وتمادى في هجرانه ، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم)) [١].

وهذا تعبير في غاية الدّقة من المربّي الإسلامي الكبير ابن خلدون عن ضرورة مراعاة المربّي للفروق الفرديّة عند التّلاميذ النّاشئة .

ويمكن أن نستنتج أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا مذكّرين لمَن يريد أن يمارس عملاً تربويّاً بهذه الناحية ، و برهان ذلك أن رسول الله ﷺ المربّي الأوّل قال: ((نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أنْ نكلّم النّاس على قدر عقولهم)) لذا فإننا وجدناه ﷺ يعامل الأعراب القادمين من البادية بما لا يعامل به أصحابه الّذين رُبّوا في حجرة النبوة [٢].

وكان علماء المسلمين فطنين إلى اكتشاف الفروق الفرديّة وأثر هذا الكشف على التّحصيل العلمي . فمرّة لقي العالم الشّعبي أبا حنيفة وهو صبيّ فلمّا تفرّس في وجهه سأله : ماذا تعمل ؟ فأجاب أبو حنيفة : أتعلّم التّجارة ، فقال له الشعبيّ : عليك بالنّظر في العلم ومجالسة العلماء فإنّي أرى فيك يقظة وحركة ، فاتّجه أبو حنيفة إلى طلب العلم ، وجمع بينه وبين التجارة[٣] .

ثانياً : اختيار المدرسة الصالحة :

سابقاً أشرنا إلى أنّ نجاح العمليّة التّربويّة علمياً وعقلياً وسلوكياً منوطة بالمدرّس الصّالح غير أنّ هذا المدرّس الصّالح مرتبط بمنهاج مدرسي ليس بإمكانه الخروج عنه إلا بحدودٍ تتسع أو تضيق حسب المادة و ظروف الزّمان والمكان ، لذا فإنّ صلاح المدرسة بصلاح مناهجها .

فما سمات المنهاج النّاجح تربويّاً وفق منظور التّربية الإسلاميّة ؟

إنّ لكلّ تربية هدف تسعى إليه ، و كي يؤدي الإنسان دوره في الحياة أداء صحيحاً لابدّ لهذا الإنسان ((أن يتمتّع بخصائص الإنسان الصّالح الذي يخضع فيه لشرع الله ، ويسخّر ما

(١) المقدمة ، ص ٥٣٤ .

(٢) سهام جبار ، الطفل في الشريعة الإسلامية ، ص ٤٠١ .

(٣) سهام جبار ، الطفل في الشريعة الإسلامية ، ص ٤٠٢ .

لديه من العلوم من أجل سعادته في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وبصلاحه يصلح المجتمع المسلم ويتفاعل أفراده فيما بينهم)) [١].

ولّما كانت التّربية المرجوّة هي التّربية الإسلامية فإنّ من أهم هذه السّمات التّربوية الّتي يجب أن يهدف إليها المنهاج ويعمل على تحقيقها ولو على نحو مجمل :

١ ـ غرس الإيمان بالله والإيمان بالفضائل الأخلاقية .

٢ ـ تطوير مواهب الإنسان كلّها والعمل على تحقيق كل طاقاته الخيّرة .

٣ ـ أن يدرك الإنسان إدراكاً علمياً مقنعاً أنّ هذا الكون لم يخلق عبثاً . وأنّ له خالقاً ، وموجّهاً يديره ، وفق نواميس طبيعيّة واجتماعيّة .

و بهذا الذي قدمناه تتكامل تربيتنا العقلية السليمة للطفل ، تلك التربية التي تحقق نمواً سليماً لعقل الطفل و مداركه و قدراته ، و ذلك لنتمكن من توجيهها التوجيه السليم لصالح الإنسان و خدمة المجتمع .

---

(١) د . يعقوب حسين نشوان ، المنهج التربوي ، من منظور إسلامي ، الأردن ـ عمان دار الفرقان ط١ ١٩٩٢ ص ١٨٩ .

obeikandl.com